

رهيف¹⁶ و شفاف

بقلم أدما حبيبي

"لقد سئمتُ المجيءَ إلى المكتب، كما سئمتُ نفسيَ الاستماعَ إلى كل قرارٍ جديد. حاولتُ أن أصون نفسي بأن أبعدها عن تطبيق أيِّ قرارٍ اتُّخذ ، على اعتبار أنه لا يهمني أنا شخصياً وما هو إلا قانونٌ آخر زيدَ على سابقه. ورحتُ أُطلق العنان لأفكاري لكي تسعفني فتأتيني بالمزيد من كلمات اللوم والانتقاد لكلِّ ما يجري وراء الكواليس من اجتماعات ومناقشات وتداولات اعتبرتُها مضيعةً للوقت والجهد. كما وجَّهتُ انتقادي الجارح إلى العديد من الشخصيات البارزة القائمة على إدارة ذلك المكتب المسيحي. وعليه فقد خاصمتُ الكثير من زملائي وزميلاتي ، بسبب الشكوى والتذمر المستمرين من كل ما يُخطِّط له من مشاريع من أجل تطوير الخدمة وتحسينها وجعلها مواكبة لعصر التقدم والتطور. أجل لم يعجبني كلُّ هذا، ولم أرَ في ذلك إلا بذخاً وإسرافاً لأموال المتبرِّعين . ولم أستفقُ على نفسي يوماً إلا عندما استدعيتُ إلى مكتب المدير لأتلقى منه رسالة تحذيرٍ وترهيبٍ بسبب موقفي السلبي ونظرتي القائمة إلى الأمور والأشخاص. وأيضاً، لأنَّ كلامي الساخط قد أثرَ على علاقتي مع زملائي وجرحَ الكثيرين منهم، حتى باتَ بعضهم يفكر في ترك العمل أو التنحّي عن الخدمة بسبب الجو الموبوء الذي سببته. وعندما شرعتُ أنا بتبرير نفسي ومواقفي ، قال لي المدير: أرجوكِ يا "إينغا" أن تأخذي وقتاً لنفسك، لتفكري بالموضوع وتصحّحي موقفك فتتخلي عن نقدك اللاذع لكل ما تقوم به من عمل وخدمة وما تتّخذُه من قراراتٍ جديدة . ولا عودةَ لكِ بعد اليوم ما لم تقومي باستشارةٍ مرشدي مسيحي عساه يساعدك في معرفة السبب الكامن وراء تصرفاتك هذه، وكلامك الهدّام تجاه الإدارة والناس من حولك وأنت لا تدريين.

وقع كلامُ المدير على رأسي كوقع الصاعقة. فخرجتُ لتويّ من حضرته ، وذهبتُ إلى البيت وجمعتُ أغراضني للحال ، وسافرت على متن أول طائرة عائدة من هولندا إلى فلوريدا. وهناك التقيتُ المرشد المسيحي الذي استمع إلى شكواي بكل انتباه واهتمام. وبعد ذلك بيّنتُ لي بأنني أعاني من مشكلة حقيقية ألا وهي الموقف السلبي أو Negative Attitude جعلني أنظر إلى الأمور بجملتها بنظرة سوداوية، نظرة تدمرُ وشكوى وانتقاد دائم نحو الآخرين. وأنَّ موقفي هذا أثرَ على علاقاتي وصدقاتي وحتى على عائلتي. وقال لي بالحرف الواحد بأنني لن أخرج من هذه البالوعة العميقة، إلا إذا اعترفتُ أولاً بأنَّ موقفي خاطئ. وأراني من كلمة الله المقدسة بأنني بحاجة إلى توبة حقيقية لكي يحصل التغيير في داخلي فتزول المرارة والحقد والغضب. وهذا ما تمَّ بالضبط يا إخوتي وأخواتي. لم أعترف فقط أمام المرشد المسيحي بخطأي ذلك، بل اعترفتُ أمام المسؤولين وكل زملائي العاملين

معي في ذلك المكتب. وبكيت بحرقه طالبة منهم السماح والغفران. عندها غسلت القلوب وعادت العلاقة سليمة معافاة وأغدق الرب ببركاته الجمّة على حياتي من جديد. نعم كم أنا نادمة على ما فعلت ، وها أنا الآن أعتزف لكم أنتم أيضاً زملائي وزميلاتي في الخدمة بخطأ موقفي الذي ربما تسرّب إلى مسامعكم من الفرع في هولندا ، فهل تغفرون لي يا إخوتي؟" نظر الواحد منا إلى الآخر فرأى محاجر العيون مليئة بالدموع. والفرح بعودة الزميلة إلى مكانها في الخدمة يغمر الوجوه. وسرعان ما توجّهنا نحوها بعد انتهاء الاجتماع لكي نعانقها ونعبّر لها عن سرورنا برجوعها إلى دائرة الشركة والعشرة الطيبة مع الجميع. نعم يا قارئ، هذه قصة حقيقية شاهدتها بأّم عيني، وسمعتها بملء أذني، حين وقفت إنغا Inga تلك الصبية الأمريكية تحكيها لنا نحن العاملين في خدمة الإذاعة، يوم زارت الفرع في مونتي كارلو، الذي كنت أخدم فيه مع زوجي. لكم أحببت ما شاركت به لأنه من صميم الحياة اليومية . وبالحق أقول لقد ارتقت في ناظري.

والآن وبعد مرور سنين عديدة على تلك الحادثة، أقول: حريّ بنا جميعاً نحن المؤمنين وبغض النظر عن عرقنا ولوننا وجنسيتنا وخلفيتنا، أن نعتزف لبعضنا البعض بالزلّات الصغيرة التي تنتج عن احتكاكنا المتواصل في عائلة بيت الله . تماما كما حدثنا الرسول يعقوب بالروح القدس: "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلّات، وصلّوا بعضكم لأجل بعض، لكي تشفوا." (يعقوب ٥ : ١٦) وما أجمل أن نفحص نفوسنا وبشكل دائم وهكذا نتخلص من الهفوات والسقطات التي وقعنا فيها وأوقعنا معنا آخرين فصاروا مجروحين بسبب كلمة ما، أو بسبب نقدٍ أو تصرفٍ غير لائق قد صدر عنا. أجل أقول لنفحص قلوبنا على ضوء كلمة الله المقدسة فنقول مع داود النبي: "تاموس الربّ كاملٌ يرُدُّ النَّفْسَ.. أَيضاً عَبْدُكَ يُحَدِّرُ بِهَا، وَفِي حِفْظِهَا ثَوَابٌ عَظِيمٌ.. السَّهَوَاتُ مَنْ يَشْعُرُ بِهَا؟ مِنَ الْخَطِيَاةِ الْمُسْتَتْرَةِ أَبْرَنِي." (مزمور ١٩ : ٧، ١١، ١٢) وإذا حصل وتجاوبنا مع روح الله القدوس وعمله في حياتنا فإن هفواتنا هذه وزلاتنا تجاه بعضنا البعض لن تعود تتراكم عبر الأيام و السنين ، لتصبح مواقف عنيدة وصلبة ، تماما كالفلاح المنيع لا يمكن اختراقها كما حصل مع إنغا ولايزال يحصل اليوم مع الكثيرين . فلا نعود نعي كيف نتصرف أو حتى كيف نتكلم أو كيف نسلك لأنّ مواقفنا السلبية قد أضحت سداً قائماً بيننا وبين الآخرين من إختوتنا، زملائنا، شركائنا في الخدمة. وكما قال الرسول بولس: فَإِذَا كُنْتُمْ تَنْهَشُونَ وَتَأْكُلُونَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَانظُرُوا لئَلَّا تَفْنُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا. وَإِنَّمَا أَقُولُ: اسْكُوبُوا بِالرُّوحِ فَلَا تَكْمَلُوا شَهْوَةَ الْجَسَدِ. لِأَنَّ الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحَ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهَذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، حَتَّى تَفْعَلُونَ مَا لَا تَرِيدُونَ... وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلَامٌ، طَوْلٌ أَنَاةٌ لُطْفٌ صِلَاحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ. (غلاطية ٥ : ١٥، ١٦، ٢٢)

نعم لن تهوي هذه السدود، إلا بعد اختبارٍ أليم لا يعاني منه فقط المسيء ، بل أيضاً المساء إليه. فماذا نختر يا ترى؟ أليس الاعتراف الفوري؟ لأن الاعتراف بالخطأ فضيلة. وهكذا نسمع صوت الروح القدس في داخلنا ونسلك بالروح فنثمر ثمار الروح؟

هل تعلم يا قارئ أن اعترافنا نحن المؤمنين وخاصةً العرب - وهنا خصصت لأن الاعتراف بالخطأ في مجتمعاتنا العربية وكنائسنا قليل لا بل نادر الحدوث لأنه ليس من طبيعة خلفيتنا وثقافتنا وإذا حدث فإننا نعتبره ضعفاً - نعم اعترافنا نحن المؤمنين داخل نطاق العائلة، وكذا عائلة بيت الله المقدسة، هو الذي يحافظ على العلاقة طاهرة، ونقية، وهو ما يساعد على نمو الانسجام والتآلف بين بعضنا البعض؟! وأنه هو الذي يفتح أمامنا أبواب السماء ليغدق علينا الله من بركاته ونعمه وعطاياه الجزيلة. وإلا فإن علاقتنا الأسرية سوف تتزعزع، وكذا علاقتنا الأخوية ستتردى وربما تنتهي في أحيان أخرى، ونكون بالتالي سبباً مباشراً لانتزاع البركة من بيوتنا والنهضة في كنائسنا وخدماتنا. فهل نصلي ونقول: "إِلَيْكَ وَحَدِّكَ أَخْطَأْتُ، وَالشَّرَّ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ صَنَعْتُ... قَلْبًا نَقِيًّا أَخْلُقُ فِيَّ يَا اللَّهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي... رُدِّ لِي بِهِجَةً خَلَاصِكَ، وَبِرُوحٍ مُنْتَدِبَةٍ أَعْضُدْنِي." (مزمور ٥١: ٤، ١٠، ١٢) ليس مهماً نوعية الخطأ المرتكب، لكن الأهم من الخطأ نفسه، هو أنه موجه ضد الله أولاً ومن ثم إلى أخينا أو أختنا. **فهل نكون مرهفي الحس لنسمع صوت الله ينادينا ؟ وكذلك شغافين نهب لنعترف ونتوب عن موقفنا ونصحح أخطاءنا فنعيش بصفاء ونقاء؟ تذكر يا أخي القارئ أنه قبل أن تقرب قربانك قدام المذبح أن تصطحب أولاً مع أخيك.**